

د. سعاد درير

ياسوناري والجماليات النائمت

دراسة نقدية

إلى الذي..
والذي..
والذي..
مازلتُ رهن الانتظار.

الملائكة تنام.. لِتستيقظ الشياطين من ثمة.

عالم الروايات عالم مذهل وأكثر من رائع، وكلما وُجِّدَتْهُ من بواباته العريضة تُهتَ أكثر فأكثر في زحام الشخصيات والأماكن والأزمنة التي تفضي بك إلى اللامتوقع حيناً واللامعقول حيناً آخر في ظل واقع سوربالي الفعل والأثر على المدى القريب قبل المدى البعيد.

غير أن النتيجة واحدة تلك التي تفضي إليها الدوافع على اختلافها وتنوعها، فأنت

تروي ضمأك إلى الإبحار كل الإبحار بأشعة
حواسك الملتهبة شوقا إلى المزيد من
النهايات التي لا تطفئ بالمرّة شعلة جوعك
الآسر ورغباتك التي لا تفتّر في الوصول
بإدراكك إلى درجة النشوة (مهما تطلب
العبورُ إلى النشوة من هذيان تواكبه غفوة).
بيد أن النشوة هاته قد تقابلها صدمة في
نهايات أخرى تحفل بها روايات كثيرة.

نطل في هذا المقام من شرفة ياسوناري
كاواباتا على جميلاته النائمت لنكتشف
عالمه المبهّم الذي يلقي بنا في أحضان
جميلته الأكثر من نائمت، وسنعرف

لاحقا لم أصبغنا عليهن هذا النعت (أكثر من نائمات).

"الجماليات النائمت" هو عنوان الرواية اليابانية الشقية للشقي ياسوناري كاواباتا الذي نستغرب كل الاستغراب لم تصرف في حياته على تلك الطريقة المهينة لإنسانيته حين وضع حداً لحياته بمحض إرادته واختار/ ارتأى له موتاً رحيماً (أو جميلاً أو سعيداً على حد تعبير من يذهبون هذا المذهب) هو الذي لم يبلغ أبناء جيله ما بلغه هو.

ياسوناري كاواباتا أطلق من بين يديه
سراح جبل الحياة الذي أتعب الكثيرين (في
غير ظروف ياسوناري) التعلّق به والحرصُ
الشديد على التمسك به.

لكن لماذا يفعلها ياسوناري؟! لماذا هو
بالضبط ودون سواه يلجأ إلى هذه الخطة
التي كأنه ينتقم بها من الزمن الذي لا ندري
بِمَ جَلَدَهُ ولمْ جَلَدَهُ وهل جَلَدَهُ أصلاً؟!

ياسوناري كاواباتا يختار طريق الانتحار
هل لأنه يَرُدُّ الاعتبار لذاته البائسة
بتواجدها في تلك اللحظة الحرجة التي
اخترلت واختزنت في رحمها مسيرة حياته؟!

نتصور أن رجلا في مقام ياسوناري
(قَلَمًا وحرفا) من الصعب والمُحَيَّر أن
يفكر ولو لوهلة في الإقدام على هذه
الخطوة التي دفع مقابلها حياته ليسدل
الستار على مسرح زمنه الذي لعب فيه دور
البطولة مقارنة بإنجازات مجايليه.

ياسوناري يُحَيَّلُ إلينا أنه بانتحاره كأنما
عاقب نفسه على تواجده في الزمن غير
المناسب، أو يكون ذلك لأنه اكتشف أنه
لم يكن الشخص المناسب لدور البطولة
بانتصاراته وانكساراته!؟

لا ندري حقيقةً وصحةً لهذه
التخمينات سواء أكانت هذه التخمينات
تُثبت أو تنفي. كل ما نؤكدُه هو أن المرء
يجهل ما يدور في كواليس حياة كل شخص
على هذه الأرض المُتعبَة.

حياة الإنسان في منظور الآخرين هي
فقط العرض المؤقت الذي يمكنهم بناء عليه
الحكم على صاحبه البطل (أنت)، بمعنى
الجانب المرئي فقط للآخرين العابرين المارين
. أما الكواليس، فهي وحدها تحجب
الحقائق وتخفي الأسباب وتُضمِر الغائب

عن علم الآخرين الذين لو لمسوا المستور
لكانوا من أوائل الفارّين.

لكل منا كواليس لا يجرؤ الآخرون على
التسلل إليها، ببساطة لأنه لا يمكن لأيّ
كان أن يعرف ما يحدث في كواليس حياة
غيره. والحالة الوحيدة التي يمكن فيها التقاط
صورة لهذه التفاصيل الصغيرة والكبيرة التي
تتخلل كواليس إنسان ما هي حين يعترف
هذا الإنسان ويصرّح بما ينأى به بعيدا عن
الأنظار.

ياسوناري مبدع "الجميلات النائمت"
هو نفسه الحائز على جائزة نوبل. غير أننا

نكاد لا نصدق كيف يعقل لرجل أن يقطع
حبل حياته بيديه بعد مرور وقت قصير
جدا على استلامه جائزة نوبل التي قلّما
يتحقق لأحدهم حلم الفوز بها؟!!

أكثر من هذا فإن رواية ياسوناري هذه
هي الرواية نفسها التي تمنى غابرييل غارسيا
ماركيز أن يكون كاتبها من شدة افتتانه
بتلك الحياة الصغيرة (العميقة الأبعاد) التي
تتمحور حولها رواية هذا الياباني الغريب
الذي نحنا فيها نحو ثريا بمخزونه الفلسفي.

لا يهمننا الآن البحث عن الأسباب
التي عجلت بانتحار ياسوناري، كما لا

يهمنا كثيرا أن نطلق العنان لتخميناتنا أو قراءتنا الشخصية في موجة الانتحار التي جرّت معها عددا هائلا من مشاهير الكُتّاب والأدباء ورجال الفن (ونسائه)، فهذا موضوع آخر، على أنه شيق وشائك، لذلك نؤجله إلى فرصة أخرى تليق بانتظارات القراء الكرام.

ضالتنا هنا جميلات ياسوناري اللواتي خصّصت لهنّ مخيِّلة ياسوناري الفتية بيتا مغروسا في طوكيو حيث تدور الأحداث وتتشابك خيوطها. إلا أن هذا البيت لا يضاهاي أمثاله من البيوت في الفكرة التي

ارتكزت عليها رؤية الكاتب الياباني والتي
بني عليها أفقه السردي.

قد يتوقع القارئ أن الجميلات
النائمت الواردات في عنوان رواية ياسوناري
حظين بدور البطولة المطلقة في الرواية هذه.
ربما نتفق عل أنهن حظين ببطولة نسبية،
لأن البطولة المطلقة بحق تؤديها شخصية
العجوز "إيغوشي"، وهي الشخصية الغائب
اسمها عن العنوان مما يفتح عند القارئ أكثر
من باب ونافذة على التساؤل ويجعله
يسجل أكثر من علامة تعجب واستفهام.

عالم إيغوشي وجميلاته عالم عائم يغري
بالغوص لالتقاط كل صغيرة وكبيرة خطّط
لها ياسوناري ورّب ودبّر وأمسك بيده
خيوط القدر الذي رسم لكلّ مصيره.
ليس معنى هذا أن نعيد سرد الأحداث
تبعاً، إنما القصد هو الوقوف بعين متأمله
عند الفكرة في حد ذاتها تلك الفكرة التي
ربما استقاها ياسوناري من الوسط الذي
يعيش فيه وربما تبادرت إلى ذهنه من منطلق
قراءاته العميقة في لوحة الواقع الماثلة قبالته
حتى أوحى له بما يمكن أن يترتب عنه
مستقبلاً (ربما) وكيف يمكن التعامل

بالإجراء الحكيم المقترض اتخاذه في حالة
وقوع ما كان يخشاه يقينا..

قراءاتك لأي نص يستفزك أو يشجعك
من أول قراءة لعتبة العنوان على عبوره
تجعلك تحلق دون أجنحة وتبحر دون شراع
في رحلة تحاول أن تعيد فيها رسم حدود
نص الرواية من المنطلق الذي يرضي غرورك
كقارئ إلى ما لا نهاية.

ماذا كان في انتظار إيغوشي في بيت
طوكيو؟ ما الذي ألقى به هنالك و لماذا
رمت به الأقدار إلى غير الوجهة التي

يقصدها بنو طينته؟ هذا وأسئلة أخرى ما
سنحاول أن نلقي عليه بعض الضوء..
ماذا كان في انتظار إيغوشي في بيت
طوكيو؟ ونعود اليوم لنستأنف قراءتنا في
رواية ياسوناري ونواصل اكتشافنا لعالم
العجوز إيغوشي، إيغوشي هذا الذي وجد
قدميه تحملانه إلى البيت الذي ترقد فيه
الجميلات النائمات.

لكن مهلاً، لماذا أطلق عليهن الكاتب
هذا النعت؟! ما جدوى أن يكنّ نائمات
إن كان وجود رَجُل واحد بينهن كافٍ

لإيقاظهن؟! الجواب عند ياسوناري، فهو
يخبرنا بأن جميلاته لسن نائمات بإرادتهن.
لهذا قلنا سابقا إن جميلات رواية
ياسوناري أكثر من نائمات؟! الجواب:
نعم، لماذا؟ لأن ما يميز جميلات بيت
طوكيو هذا الذي كانت حسناواته في
استقبال أمثال العجوز إيغوشي هو أن
وظيفتهن تفرض عليهن أن يكنّ نائمات
طيلة الليلة التي يقضيها العجوز الواحد
عندهن.

جميلات ياسوناري كُنّ يتجاوزن مرحلة
النوم بكثير، لماذا؟ لأن ظروف الخدمة التي

يقدمنَّها تجبرهن على أن يتناولن مخدراً
يجعلن غائبات عن الوعي على امتداد
الليلة التي تستضيف فيها الواحدة منهن
عجوزها المفترَض.

في الأمر سرٌّ إذن؟! إن كان فإنه لن
يخرج عن كون الجميلات في هذا البيت
المدفون في طوكيو يؤهّل العجزة من الرجال
الذين ضاع حَقُّهم في الحصول على المتع
الجنسية ليستمتعوا بأجواء قريبة من الأجواء
التي تهفو إليها نفوسهم، لكن هذا يتأتى
شريطة أن يكتفوا بشرف النظر والتأمل
والاستدكار.

ألهذا كانت مضيئة بيت الأسرار هذا
الذي تُنَوِّمُ فيه الجميلات تُحَدِّثُ العجوز
إيغوشي بأن زبائن البيت (الذي تديره) من
الرجال المتقدمين في السن "زبائن لا يجلبون
المتاعب"؟!

قد يبدو الأمر غريبا وعصيا على
التصديق، لاسيما وأن المرء يطلق عنان
مخيلته ليتصور ما يمكن أن يحدث بين
عجوز وجميلة تعيد إليه بريق الشباب أو
تكاد. لكن مهلا مرة أخرى، لأن العبرة من
درس ياسوناري هي إعطاء فرصة للعاجز

ليحظى بامتياز تخيّل الفعل في غياب القدرة
على الفعل.

الحقيقة أن أمثال إيغوشي بطل
ياسوناري هم رجال طال بهم العمر
فتقدموا في السن، لذلك تجدهم يأتون إلى
بيت طوكيو هذا ليجددوا الوصل بصغيرات
جميلات (ذكر لنا إيغوشي بأن واحدة
منهن، وقد شاركته الغرفة لليلة، عمرها لا
يتجاوز ستّ عشرة سنة) يخلقن لهم عالماً
خاصا يجعلهم يُقْبِرُونَ فيه عجزهم الذي
يمتعضون منه وغياب قدرتهم على التفاعل
مع النساء.

لذلك فالصغيرة النائمة من النساء اللواتي تم وضعهن رهن إشارة العجزة لن يتعرض العجوزُ منهم لخرج أمامها وهو يُضْمِرُ عجزه عن أدائه كرجل. ومن جهتها هي، فإنها لن تفشي سرّه أو تتذكر أي شيء مما لم يحصل بينهما، فهي أصلاً نائمة لا ترى ولا تسمع ولا تتكلم. وهذا أقصى ما يتمنى عجوز في ظروف الرجال الذين صنع ياسوناري شخصياتهم، شخصيات من ورق.

إيغوشي هذا بطل مراوغ، كما أن صانع الشخصية تلك (نقصد ياسوناري) كاتب

مراوغ، لأن القارئ منا يظل يلهث ترقبا
لنهاية ترضيه، فإذا بياسوناري يظل يهرّب
حقيقة عجز إيغوشي من قدرته بصفته
رجلا دون أن يشفي غليلنا إلى ارتشاف
قطرة تخفف من تعطشنا إلى إجابة مُرضية.
ولا ندري بيقين تام إن كان إيغوشي هذا
يتحايل كاتبه على القارئ.

هذا التحايل يمكن قراءته على مستويين
يوجههما السؤالان التاليان: أولا، هل
إيغوشي هو حقا عاجز جنسيا، فتركه
ياسوناري يجتزّ كلمات تخفف من وطأة
عجزه متظاهرا بين الفينة والأخرى بأنه هو

من يزهد في تلك المتعة فقط ويفضل النظر
ببصيرة متأمل حكيم على المشاركة في
الفاعل؟! ثانيا: هل إيغوشي هو فعلا رجل
كامل الرجولة، لكن الفضول يزجّ به في
بيت الجميلات النائمات ليواصل على
امتداد الليلات الاكتشاف والإبحار في
تفاصيل الأنوثة جسدا وروحا كرحالة به
شغف إلى الإمام بأدقّ الجزئيات وهو يسبر
أغوار كوكب الأنثى، لذلك كان يكتفي
بإعادة رسم المشهد في ذهنه تحيلا متحكما
في حسه الرجولي الذي جنبه الاستجابة
لنداءات الغريزة!؟

لكن يحدث ما لم يكن في الحسبان،
لأن من حظ العجوز إيغوشي أن إقامته
الليلة الخامسة في ذلك البيت، وتحديدًا في
الغرفة التي انفرد فيها بالصغيرة (وأكثر)،
تنتهي بموت الصغيرة السمراء. معقول!
كيف يحدث هذا؟! ولماذا؟! أسئلة كهذه لا
مجال للإجابة عنها الآن، لكن يكفي أن
نقول: إنه القَدَر.

هي ورطة/ صدمة من العيار الثقيل أن
يسقط أي رجل في هذا الموقف الحرج. وهو
مقلب آخر مُرّ يَشْرِبُه الرجل/ العجوز
مغمض العينين. لكن ماذا بشأن إيغوشي!؟

لا يهم الاسترسال في سرد الأحداث
بقدر ما يهم تسليط الضوء على الطريقة
الغريبة التي تمضي بها الحياة في منزل
النائمات المُعَيَّبات. فكل ما يقمن به هو
أنهن يسمحن لرجال مع وقف التنفيذ أن
يتسللوا إليهنّ دون أن تفسد إحداهنّ الجوّ
على ضيفها العجوز بإحراجه أو تذكيره
بعجزه القائم.

من جهة أخرى، فإن الصبايا
الحسناوات النائمت يسمحن لضيوفهن
العجزة بالسفر في ذاكرة الماضي، فكل نظرة
من العجوز إلى فُتاته النائمة تفتح صنبورَ

الذكريات التي يسترجعها العجوز تباعاً،
وكل موقف يجمع العجوز بالصبيبة النائمة
يمطره بوابل من الصور التي يستحضرها
العجوز بعد أن يُفْرَغَ في حضرة الصبيبة
حقيبة ذكرياته الثقيلة بالماضي الذي يتسلل
إليه ككابوس حيناً أو كحلم حيناً آخر
يعيشه رفقة فتاته التي لا يُجدي وصالها عنبا
ولا بلحاً ولا حبّاً.

هكذا تكون ملاقات النائمات بمثابة
البوابة التي يلج من خلالها العجوز مقبرة
الزمن ليتعرف إلى أشلاء الأيام الماضية بما
حملته معها من أصدقاء ومعارف وأحبة

كانوا بالأمس كلّ شيءٍ وعليهم قام كلّ شيءٍ
وبرحيلهم انتهى كلّ شيءٍ ماعدا
القدرة على التذكّر التي أتاحها للعجزة بيتُ
طوكيو ذاك.

ولنا أن نستشفّ هنا كمّ المرارة والحلاوة
بالمثل ونحن نجوب شوارع رواية الجميلات
النائمات ونتوغل في غابة شخصية إيغوشي
النائب عن ذيل من الشخصيات المنتشلة
من الواقع المتخيّل على حدّ سرد ياسوناري.
أمّا المرارة المشار إليها، فمرّدها إلى
العجز الجنسي القاهر الذي تلبّس
بشخصيات تضاهي حالها حال زملاء

إيغوشي في محاولة القفز على عيبيهم أو
خطيئتهم أو جريمتهم الكاملة التي لم
يقترفوها (العجز). وأمّا الحلاوة التي نقصد،
فعلامتها نشاط الذاكرة والمخيلة كذلك.
فالذاكرة/ ذاكرة العجزة لم تمت ولم تضعف
بدليل أنهم يواظبون على ارتياد بيت طوكيو
لتفجير صور الذاكرة وبناء أهرام من
المَحْكِيَّات. والشيء نفسه يقال عن مخيلة
العجزة، وهذا إيغوشي واحد منهم ترسم له
مخيلته النشيطة ما شاء من صور
واستيها مات..

ما كتبه ياسوناري يصور لك عقلك أنه
بمثابة أذرع تدفع بقراءتك إلى الأمام، وكلما
ظننت أنك دنوت من القاع ترفعك موجة
المعاينة إلى تجديد الغوص في فضاء يحثك
على التآني في قراءة الأحداث شخصياتٍ
وأزمنة وأمكنة كلما مسّختها بعينك
المتفقدة لأوصال المغامرة الروائية تدعوك إلى
التريث لإعادة الانطلاق من حيث لم تنته.
محطتنا الأخيرة صحبة الجميلات
النائمات وعودة إلى رواية ياسوناري
كاواباتا. تجديد هذا الوقوف يأتي للإطالة
على المغامرة الروائية على امتداد فتوحات

العجوز إيغوشي، إيغوشي الهائم في رحلة
بجثه عن المستحيل أو الممكن.

كيف ذلك؟

ذلك وفق رؤية العجوز للأمور، وكذلك
نظرته الخاصة إلى المجهول الذي أثبت لنا
صاحبنا في أكثر من مناسبة تَوْقَه الجارف
إلى اكتشافه.

حالُ إيغوشي لا تختلف كثيرا عن حال
صبي أو مراهق يسبقه حماسه، وهو الحماس
الذي يتفجر كبركان شهوةً إلى ملاحقة
النهايات بجلوها وحتى بمرّها الذي تخفيه
الأيام. فالمقام مقام الانقياد، والعجوز

إيغوشي متأهب بما فيه الكفاية للتسلل إلى
عش الصبايا النائمات.

عُشَّ الصغيرات المُخَدَّرَات (عمدا)
هذا يجعلنا نتساءل مرارا كما لم يتساءل
إيغوشي قَطُّ:

ماذا لو كان خلف العُشِّ عنكبوت أو
حيّة؟!

ألا نتفق على أن إيغوشي هذا شخص
متهور إلى أبعد مدى؟!

أما فَكَّرَ هو في احتمال أن يعود عليه
الفضول بلسعة أو سواها من سيّدة/
سيّدات العُشِّ؟!

تَهَوُّرٌ إِيغُوشِي المَقْرُوءِ عَلَي أَكْثَرِ مِنْ
مَسْتَوَى يَجْعَلُ مِنْهُ بِالفِعْلِ مَرَاهِقًا، مَرَاهِقًا
كَبِيرًا بِدِمَاحِ صَبِي يَضَعُهُ فِي مِصَافِ
الأَطْفَالِ وَالْمِجَانِينَ دُونَ أَنْ يَسْقُطَ عَنْهُ
الحَرْجُ، لِذَلِكَ يَتَرَاءَى لَنَا أَقْرَبَ إِلَى شَيْخِ
أَعْرَ.

النَّزْقُ، قِلَّةُ التَّرِيثِ، سَوْءُ تَقْدِيرِ
العَوَاقِبِ، التَّصَابِي، مَا هَذِهِ وَمَا تَلَاهَا سَوَى
تَسْمِيَاتٍ تَلِيْقُ بِفِعْلِ إِيغُوشِي، إِيغُوشِي هَذَا
العَاطِلُ عَنِ التَّفْكِيرِ فِي التَّخْمِينَاتِ
وَالاحْتِمَالَاتِ وَالنَّاتِجِ غَيْرِ المُرْضِيَةِ الَّتِي

كان من الممكن أن يصل إليها بقوة
حماسه.

والغرابة أن إيغوشي لم يفكر مرة في ما
إن كان حماسه ذاك سيحرقه، وكذلك سرعة
خطاه إلى البيت المنسي (بيت الجميلات)،
تلك الخطى التي كان من السهل أن تقوده
إلى حتفه، فتنخيل حينها كيف سنجده
يغني في ضوء موسيقى عاشق أرعن:

"إلى حَتْفِي سَعَى قَدَمِي

أَرَى قَدَمِي أَرَأَقَ دَمِي"

ربما هو البحث عن التنوع، أو البحث
عن الاختلاف ما دفع إيغوشي إلى أن

يتعثر في زلّة قدميه (مجازاً)، ليتبع ذلك سقوط حقيقي كان بينه وبين اكتماله ما بين الكأس والشفة، لولا أن القدر كان لطيفاً به حين جعل ضربة مقص الموت تقع على الصغيرة السمراء لينجو هو بنفسه.

لكن أحقنا نجا هو؟!

شخص آخر في مكانه كان الجدير به أخذ العبرة من مقلب الموت الذي نزل على السمراء فشربه إيغوشي. لكن ألا نرى أن من المغالطة أو لنقل بالأحرى إن من الوقاحة أن يواصل إيغوشي ليلته الخامسة في بيت الصغيرات الغائبات عن الوعي

عملا برأي المضيئة "الحكيمة" مستأنفا
سهرته كأن شيئا لم يكن؟!
أي إنسان في مكانه هذا الذي كان
سيُقدِّمُ على ما أقدم عليه إيغوشي وهو
يرى الموت شاخصا ماثلا على السرير
ناهيك عن تبعات رحيل الصغيرة عن الحياة
من مساءلة قانونية و "سين جيم"؟!
إلى هذا تسبق العجوزَ إيغوشي
جرأته؟!

أَعْمَلِ إيغوشي حقا بمقولة المضيئة
"النيهة" حين لفتت انتباهه ببرودة امرأة
رخامية إلى أن موت الصغيرة السمرء لا

يعني خلو البيت من صغيرة أخرى على
أهبة واستعداد؟!!

كأن المضيئة رشته بماء بارد ليستعيد
صوابه/ ضلاله: كيف فات إيغوشي أن
رحيل صبية مُنَوِّمة سيفسد عليه ليلته
تلك؟!!

بالله عليه كيف يرضى هو بالمضي على
درب طيشه وثمة روح فارقتها الروح وما
أخلت سبيله إلى جارتها (الفتاة البيضاء)
في سرير الرغبة المستعصية؟!!

ألا نرى أننا لهذا قلنا في الجزء الثاني من
المقال إن إيغوشي قضى ليلته الخامسة رفقة
الصغيرة السمراء (وأكثر)؟!
الصغيرة النائمة (وأكثر)؟!
لا غرابة إطلاقاً أن نكون إزاء أكثر من
جميلة زَقَّها القَدَرُ إلى باب إيغوشي، فلا
يختلف اثنان في أن الليلة الأخيرة التي غامر
فيها إيغوشي بحجز غرفة هنالك كانت ليلة
استثنائية كَمَا وَكَيْفًا.
ماذا يمكن أن يحدث في تلك الليلة
الباردة إنسانياً أكثر من أن المضييفة تدعوه

إلى أن يشرب نخب الجميلة الراحلة عن
دنياهم؟!!

أليست المضيضة هي من قالت له إن ما
عليه سوى أن يواصل سهرته ويستمتع
فما زالت عنده واحدة (إشارة إلى الفتاة
الأخرى البيضاء)؟!!

أيعقل أن تغيب الرحمة والشفقة عن
المضيضة إلى الدرجة التي لا يحرك فيها موت
إحداهنّ شعرة؟!!

موقف كهذا لا يُعدُّ جديداً أو غريبا
بالنسبة لمُسيِّرة منزل من هذه العينة
والنوعية.

أليست هي نفسها من سبق لها
التصرف بالطريقة الباردة نفسها عندما
مات في بيتها ورفقة واحدة من جميلاتته في
غرفة بعينها العجوزُ الذي كان يشغل
منصب مدير في منتصف ليلة بائسة هنالك
حيث يحلو للعجزة أن يعاشروا الأموات
مادامت الحسناء من أولئك الصبايا تكون
أقرب إلى جثة هامدة تحت تأثير المُخَدِّر؟!
فماذا فعلت المضيضة عند موت المدير
ذاك!؟

لا شيء سوى أنها سارعت إلى
استقدام رجال طلبت منهم أن يحملوه إلى

نُزِّلَ كَأَنَّ الْمَدِيرَ الْعَجُوزَ لَمْ يَقْصِدْ بَيْتَ
النَّحْسِ ذَاكَ.

يا للبرود! لكن لماذا كل هذا!؟!

ببساطة فإن ذلك كان تجنباً لمسِّ سمعةِ
المدير، خصوصاً بالنسبة لأهل بيته الذين
لن يتصوروا مطلقاً أين قضى العجوز ذاك
ليلته أو ماذا كان يفعل تحديداً.

هذا ما عرفه إيغوشي لاحقاً من صديقه
العجوز "كيغا" الذي دلَّه إلى بيت
الجميلات الذي يردُّ الاعتبار لمن وصل
سَنَّهُم إلى سقف معين تذوب معه أحلام
الراغبين في المتعة.

ما حصل لإيغوشي في الليلة الخامسة
أصابه بالهلع أول الأمر، لم لا وهو يبصر
كيف أن المضيضة ترتب في هدوء لنقل
الحسناء السمراء التي توقّف نبضها وفارقت
الحياة!

والدرس الذي يتعلمه إيغوشي من
مضيضته هو: لا وجود لما يبعث على قلقه،
وإن ماتت حسناء فليست نهاية العالم،
ذلك بأن ثمة أخرى تنوب عن "المرحومة"،
وإن ضاعت ليلة سيجد الفاقد يقينا ضالته
في ليلة أخرى واثنين وأكثر، وكل شيء له
بديل في الحياة.

أيعقل أن تؤول الأمور إلى هذه الدرجة
من الدونية في التفكير وفي برمجة الحياة؟!
الغريب في الأمر أن كل الصبايا اللواتي
تعرضهن المضيئة في متحفها الحي الذي
يضم باقة من اللحوم هنّ حسناوات
عذراوات!

فما الحكمة إذن من تقديم طبق
العذراوات هذا لرجال ضاقت بهم بيوتهم
وأزمنتهم التي رمتهم في أحضانهم وهم على
يقين من أن وجود الواحد منهم رفقة
الحسنة الواحدة لن يقدم ولن يؤخر؟!!

الأسوأ بحق أن إيغوشي يعود إلى غرفته
حيث تنتظره الجميلة الثانية مبدداً هواجسه
وتخوفاته وكأنه بدوره يستسلم لقدّره!
هل الأمر متعلق بمسألة تَعُودُ؟!
إيغوشي يقضي الليلة الأولى في بيت
الحسناوات بتوصية من "رفيق السوء" كيغا
الذي كان يتردد على بيت الجميلات. تمرّ
خمسة عشر يوماً، فيعود إيغوشي ليتصل
بالمضيفة حتى يحجز لنفسه سريراً و ليلة
أخرى. حين يحضر في المرة الثانية يُفاجأ
بأن المضيفة لم تحتفظ له بالجميلة السابقة،

فثمة حسناء أخرى تصفها المضيفة بأنها
متمرّسة.

هنا يطرح إيغوشي السؤال الذي يطرحه
القارئ بدوره: ما معنى أن تكون الصبية
متمرّسة إن كان حضور العجوز المتقاعد
عن الفعل لا يؤهّله لاختبار الصبية والتعرف
إلى درجة تمرّسها؟!!

مغامرة الليلة الثانية تدفع العجوز
إيغوشي إلى الاتصال مجدداً ببيت النائمات
بعد أسبوع فقط مرّ على زيارته للبيت
لحجز غرفة. ثم تأتي المغامرة الرابعة، وأخيراً
تأتي الليلة الخامسة التي كان من المفروض

أن تغير مجرى الأحداث وتغير شيئاً من
مسار قَدَرِ إيغوشي.

لكن الشيخ المتصابي يكسر أفق توقع
القارئ، وإذا به بعد نبأ موت الصبية
السمراء ينصت إلى حكمة مضيفته كما
ينصت تلميذ حَيِّ، مضيفته التي رأت من
العدل أن ينسى ما حدث وأن يعود إلى
غرفته حيث كانت الصبية البيضاء مازالت
تغوص تحت وقع المخدّر.

النوم العميق هذا للصبايا أوحى للعجوز
إيغوشي بأشياء كثيرة وأحداث قديمة
تسللت إليه من الذاكرة. فالنوم العميق

الذي قرأه إيغوشي في وجوه العذراوات
يذكره في فاصل استرجاعي بالسيدة التي
تعرف إليها سابقا في ملهى ليلي واقتادها
معه إلى الفندق الذي كان يقيم به، وبعد
أن استيقظ صباحا أخبرته بأنها نامت نوما
عميقا، مع أن السؤال المتفرّع الذي يطرح
نفسه هنا بالنسبة للقارئ وربما حتى
بالنسبة للعجوز إيغوشي هو:

كيف يعقل لهذه السيدة أن تفضّل
المبيت في فندق مع رجل لا تعرفه وفي
انتظارها طفلة تركتها في بيتها؟! ثم إن لديها
زوجا، هذا معناه أن حلمها كأم تحقق على

أرض الطفولة (الضائعة)، وبالمثل تحقق حلمها كزوجة. إذن ما الداعي إلى البحث عن بديل لإطفاء رغبات صارخة مادام ثمة رجل في حياتها (زوجها)؟ ما معنى أن يترك إيغوشي (أو أي عجوز آخر) زوجته ل يبحث عن المستحيل في أحضان من لن ينتصرن له؟! ما معنى أن تترك زوجها زوجة (كنزيلة الملهى التي راقصت إيغوشي ورافقتة) لترتمي بين ذراعي رجل مجهول؟! أهو الفراغ؟! أهو سحر المغامرة؟! أسئلة كهذه كثيرة جدا يفتح لها ياسوناري على مدار أحداث روايته أكثر

من نافذة على القارئ الذي يجعله الكاتب يفكر ويتساءل ويستفسر ويتصور وينتقد ويشمئزّ ويستغرب ويرفض ويشجب وما إلى ذلك من ردود أفعال لم تكن إلا مُتَعَمِّدَةً من جانب ياسوناري، فيسعى إلى تدويب جليد التلقي ليصبح القارئ فاعلا في الخطاب السردي ولو من منطلق التحري والاستفهام وإعادة ترتيب ألف باء الحكيم للوقوف عند المغزى والبعد والقيمة..

وما تجليات الحنين إلى الماضي بمشاهده المتوالية من نساء وحكايات ترويه الرواية سوى كشف لأغوار النفس الإنسانية التي

تُضمِّرها الشخصية المحورية (إيغوشي) في مختلف تحركاتها، حتى عن طريق الاستذكار. فالمشاهد الاستراتيجية تلك مكنتنا من التعرف إلى نساء إيغوشي السابقات من رفيقات دروب ضيقة في الحياة، وكذلك الشريكات الرسميات مثل البنات صغيراته اللواتي وقف عندهن مطولا في ما سرده لنا عن ماضيهن.

هذا الماضي نستشفّ كم يتوق إليه إيغوشي وكأنه يذرف دموع الشيخوخة المتقدمة التي جرّته إلى مستنقع الوحدة والحرمان. إنه المستنقع الذي لا يقوم فيه

إيغوشي بأي دور سوى الغوص في قراءة
لوحة واقعه المحمل بالشجون، تلك اللوحة
المتنافرة الألوان حيث الغلبة للون الأسود
الذي يفتقد تناسق هرمية الماضي.

رواية ياسوناري مُتَنَقَّس لشخصية ميتة
تمشي على قدمين: إيغوشي. هي رواية
يقدم ياسوناري أحداثها كلغز يختزن في
رحمه قراءة (قراءة ياسوناري) خاصة للحياة
ورؤية خاصة لها.

لاشك في أنه عالم عجيب بينه
ياسوناري لقرائه سطرا سطرا، بينه مطلا
عليهم بما يدفعهم إلى الاستغراب والدهشة

تارة، والاستفزاز والتمرد تارة أخرى. لكن المؤكد أن ثمة مُسححة فلسفية يضيفها ياسوناري على أبطاله وسيروراتهم وصيروراتهم، وربما يعكس فيها قراءته الفلسفية للحياة كما يراها هو كاشفاً ومستشرفاً.

غير أن السؤال الصادم العالق بأذهاننا بعد هذا هو: أيمكن ياسوناري حقاً قد بَقَرَ أحشائه كَمَنقَد ليغرب عن الحياة حزناً على موت زميله الروائي "ميشيما"، أم ضيقاً من الحياة التي أغدقت عليه من الوحشة والوحدة، أم يكون ياسوناري هو الآخر قد

أُصِيبَ برصاصة في رجولته جعلت منه
نسخة من البؤساء زُوَاد بيت الجميلات
النائمات؟!!!